قراءة في كتاب الأدب والغرابة

للناقد عبد الفتاح كيليطو

الباحثة أمينة عرجوني
طالبة بسلك الدكتوراة
النقد العربي: مختبر تكامل المناهج في تحليل الخطاب
المغرب

بعد الاستقلال –عهد الحرية– جاء التطلع إلى الأفق الأعلى والبحث والتنقيب وتثقيف الذات، الستينيات عهد الانبعاث والتنوير، كانت نهرا كبيرا يموج بحركة التجديد الثقافي من خلال الكتابة والفنون، حركة عصيبة انبعثت منها حركات إبداعية في مختلف المجالات: الأدب، المسرح، السينما، في ظل هذه المرحلة الصعبة كان الإخلاص للمجال الثقافي، طمح فيها المغاربة إلى التهام الكلام الذي سيطورهم وينور عقولهم وذلك بالانفتاح على العالم الغربي، عالم صاخب بالعلم والمعرفة وسط جامعة محمد الخامس حيث الكل يردد أفكار فرانز فانون.

تطورت التصورات حول الأدب والنقد، وكانت قفزة نوعية مما كان سائدا خلال السبعينات إلى مستوى جديد لا يزال مستمرا إلى الآن من أودلوجيا تبسيطية وانفعالية، كانت البنيوية التكوينية محاولة للتجديد وبعدها البنيوية لتكرس وعيا جديدا للأدب، فكانت في هذه الحقبة إسهامات جادة ومتميزة للمغاربة، يذكر في هذا النطاق: عبد الكبير الخطيبي، محمد بنيس، محمد مفتاح، سمير المرزوقي....

نستنتج أن الحركة النقدية وجدت طريقها في المغرب من خلال هذه الشخصيات الرائدة وغيرها كثر، أسهمت في مسار تقدم النقد الأدبي المغربي حيث عالجوا كل القضايا النقدية تقريبا وأضافوا لها بعض المصطلحات الجديدة، والعلم الأبرز هو الدكتور عبد الفتاح كيليطو الذي عالج بعض القضايا النقدية في الساحة الأدبية المغربية بمناهج نقدية غربية مع استحضار كامل وواضح للتراث الأدبي.

من الصعب أن نقتحم كتابات الناقد عبد الفتاح كيليطو والزعم على قراءتها؛ وذلك لعدة اعتبارات منها:

–أنه صاحب مشروع نقدي موحد ومتعدد وممتد ومثابر: فهو موحد بموضوعه، وممتد في الزمن، ومتعدد بمرجعياته المعلنة والمضمرة التي تعبر خببا بين السطور، ومثابر في البحث عن الملاءمة والصرامة العلميين بكيفية لا تخلو، وبإقرار شخصي، من الترميق على مستوى الأجهزة المفاهيمية وأدوات إنتاج المعرفة.

–أن دراسات كيليطو جعلته يتميز وينفرد في كتابة نقدية معاصرة حيث الأسئلة تنطلق من مفهوم موسع للسرد، لتذهب بعيدا إلى أعماق النصوص الحكائية العربية بتنويعاتها وفنونها ومظاهرها، فتقارب ضلالها وتخوض تجربتها الأصلية وتلغي الحواجز الوهمية بين أنواع السرد منقبة عن ملاقيها والجسور بينها.[1]

سنتناول في هذه القراءة كتاب "الأدب والغرابة: دراسة بنيوية" للدكتور عبد الفتاح كيليطو، الذي يأبى أن يطلق عليه لقب الناقد، ويعد نفسه أديبا فقط حتى عندما يكتب عن النقد لاعتبارات عدة، هو باحث مغربي من مواليد سنة 1945، درس المرحلة الثانوية بثانوية مولاي يوسف ثم تابع الدراسات العليا بالرباط، خريج الأدب الفرنسي بجامعة محمد الخامس سنة 1971، حاصل على دكتوراه الدولة من جامعة السوربون الجديدة سنة 1982 حول موضوع "السرد والأنساق الثقافية في مقامات الهمذاني والحريري". وحاصل على جائزة الملك فيصل لسنة 2023 في فرع اللغة العربية، وموضوع السرد القديم ومنظورات النقد الحديثة.

كرس حياته العلمية لمقاربة الثقافة العربية الكلاسيكية على ضوء المناهج النقدية الحديثة بنيوية وسيميائية في استفادة من الفلسفة الغربية وآليات البلاغة العربية القديمة والمعارف المتعلقة بالتراث العربي القديم والحديث. أثرى الساحة الثقافية العربية عموما والمغربية خصوصا بدراسات جادة وقراءات أدبية عميقة، ويلاحظ أن نصوص كيليطو موجزة مختصرة تتطلب المقاربة البنيوية التي تكتفي بالنصوص القصيرة، ولا مجال

للريب في أن بعض هده الإنجازات المتنوعة المأمولة تتمثل فيما صاغه الباحث لاحقا من دراسات تستوحي النقد الموضوعاتي، وتبحث في شبكات الصور الناظمة للنصوص الأدبية وخاصة منها ما ينتمي للسرد العربي القديم.

له مؤلفات عدة منها: الحكاية والتأويل، لسان آدم، حصان نتشه، أبو العلاء المعري أو متاهات القول، المقامات، الأدب والغرابة ويعد هذا الأخير نموذجا نقديا زاخرا في عالمنا العربي في دراسة الثقافة العربية الكلاسيكية لأنه يستند إلى آليات التفكيك والتركيب والتأويل وتفسير النصوص بأسلوب وصفي ممتع رائع.

العنوان بلغة جيرار جينيت هو عتبة؛ هو شرفة يطل منها القارئ على النص، من على هذه يقترح المؤلف قراءة أولية لعمله بأفق إرشاد القارئ في أدغال المعنى وضمن منعطفات وانحناءات وتشكيلات الكتاب، كون العنوان مفتاح الكتاب، ومن يتأمل عنوان كتاب "الأدب والغرابة" سيجد تحت العنوان الخارجي تعيينا جنسيا يتمثل في "دراسات بنيوية في الأدب العربي" ينبئ فيه عن المنهج الذي سيسلكه في طيات كتابه، قصد تحديد مكوناته الثابتة المحايثة وقواعده التجنيسية وآلياته المولدة.

قراءة العنوان "الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي" تحيلنا إلى أن الكتاب موضوع القراءة عبارة عن دراسات نقدية للأدب، دراسات تهتم بالأعمال الأدبية، عن طريق وصفها وتحليلها وبيان مكوناتها والحكم عليها.

يحمل العنوان مجموعة من المفاهيم الأساسية في حقل الدراسات النقدية، وهي

–الأدب: ويقصد به الكتابات الشعرية والنثرية الفنية، التي تخالف بلغتها وأسلوبها ما هو مألوف.

–الغرابة: اسم عطف على الأدب، وهي صفة تحيل إلى الأشياء غير المألوفة، والتي تثير الاندهاش والانتباه.

–دراسات: تشير إلى الدراسة النقدية، وقد جاءت بصيغة الجمع، مما يعني أن كيليطو سيقدم أكثر من دراسة واحدة من هذا المؤلف.

–بنيوية: صفة للدراسات، تحيل على نوعية الدراسة المعتمدة في المؤلف، إذ البنيوية منهج نقدي ظهر في فرنسا في منتصف الستينات من القرن 20، وهو يركز على الجوانب والعناصر الداخلية والبنيوية للنصوص، مهملا سياقاتها الخارجية تاريخية كانت أو سياسية... ومن بين أهم رواده نذكر: تزفيتان تودوروف ورولان بارت الذي تأثر بكتاباتهما عبد الفتاح كيليطو، وقد أشار إليهما في الكلمة التي قدم بها كتابه.

يلمح عبد الفتاح كيليطو في الكلمة التي استهل بها كتابه، إلى بعض الأسباب والعوامل التي غيرت نظرته للأدب، حيث كانت نظرته للنصوص الأدبية تقليدية، لكن بعد انفتاحه على آراء الغرب تغيرت هذه النظرة، وبالتالي تغيرت قراءته التي على إثرها تغيرت كتاباته، وقد ساهم في هذا بشكل كبير إصدار مجلة فرنسية متخصصة بالتحليل البنيوي للسرد التي تضمنت مقاربة جديدة للأدب أحالت عبد الفتاح كيليطو إلى تغيير قراءته، هذه الأخيرة ألقت ضلالها على كتابته بشكل عام.

تتكون الواجهة الأمامية للكتاب من جزئين، جزء أول في أعلى الصفحة، صمم على شكل إطار أبيض، كتب فيه اسم المؤلف، وسطر عليه بخط أحمر، ثم أسفله مباشرة نجد عنوان الكتاب، وهو عبارة عن مستويين، عنوان رئيسي "الأدب والغرابة"، كتب بخط شديد الوضوح، وعنوان فرعي "دراسات بنيوية في الأدب العربي".

أما الجزء الثاني فهو عبارة عن رسم عرف في الثقافة العربية الإسلامية باسم "المنمنمات"، واشتهر فيه اسم الخطاط والرسام "الواسطي" عندما وضع لوحة لكل مقامة من مقامات الحريري.

تضم هذه اللوحة خمسة أشخاص ملتحين، مرتدين للعمامة، يمتطون صهوة أحصنة، رافعين أعلاما، شاخصة أبصارهم إلى الأعلى، ويمكن ربط دلالات هذه اللوحة بدلالة العنوان، فاللحية والعمامة هي رموز تحيل إلى الثقافة العربية، في حين زاوية نظر هؤلاء الأشخاص تنظر إلى الأعلى، وهو ما يرتبط بالدهشة والاندهاش والغرابة. كما أنه يحيل إلى الأدب باعتباره لغة عليا.

وما يؤكد هذا الطرح هو ما جاء في "رجاء الشبك"، حيث نجده قد اقتطف جزءا من المحور الأخير في القسم الثاني من المؤلف يتحدث فيه عن السندباد العربي الذي يبحر في عوالم مختلفة تتداخل فيها عناصر الألفة وعناصر الغرابة.

قسم عبد الفتاح كيليطو كتابه إلى قسمين:

إن نية المؤلف في القسم الأول هي تدقيق بعض المفاهيم النقدية من قبيل: "النص الأدبي، تصنيف الأنواع، قواعد السرد، دراسة الأدب الكلاسيكي: ملاحظات منهجية، تاريخ الشاعر".

والقسم الثاني وهو قسم تطبيقي يهدف فيه عبد الفتاح كيليطو إلى رصد المظاهر البنيوية للثقافة العربية الكلاسيكية. تناول فيه خمس دراسات أيضا: "أرسطو والجرجاني: الغرابة والألفة، الحريري والكتابة الكلاسيكية، الزمخشري والأدب، الملح والنحو، نحن والسندباد".

رغم أن حجم هذا الكتاب لا يتجاوز 122 صفحة، إلا أنه كتاب زاخر بالدراسات الأدبية،

انطلق الدكتور الباحث عبد الفتاح كيليطو في الدراسة الأولى من القسم الأول المعنونة ب "النص الأدبي" من فكرة مفادها أن معظم الدراسات الأدبية لا تهتم بتعريف الأدب، لأنها تفترض أن طبيعة الأدب معروفة ولا تحتاج إلى تعريفها، وانطلاقا من هذه الفكرة يسعى الناقد إلى تقديم تعريف للأدب، وقبل هذا يرى أنه لابد من معرفة معنى النص أولا، ثم يجد أن مفهوم النص مفهوم غامض لا يمكننا معرفة المقصود به إلا من خلال تمييزه عن اللانص، لهذا طرح مجموعة من التساؤلات منها: "هل يمكن اعتبار المكالمة الهاتفية نصا؟ هل الحوار اليومي نص؟ هل الإعلانات التجارية نصوص؟ ولحل هذه الإشكالات يقترح الناقد مجموعة من المعايير والشروط التي تميز النص عن اللانص، فالنص يذوب في المدلول اللغوي ولا ينظر إليه إلا من هذه الزاوية عكس اللانص. كما يتميز النص عن اللانص بكونه يحمل مدلولا ثقافيا لذلك يحتفظ به ويخشى عليه من الضياع ويحصر بين دفتي كتاب، ويحرص على تعليمه في المدارس والجامعات، إضافة إلى أنه يستشهد به، وينسج على منواله، هذا إلى جانب اعتبار النص مفسرا ومؤولا وواضحا بخلاف اللانص، بعد هذا التمييز الذي أقامه الناقد بين النص واللانص، يعود لتحديد مفهوم الأدب وذلك من منظورين مختلفين:

-المنظور العربي: الأدب هو التحلي بالأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة.

-المنظور الغربي: la littérature ظهرت هذه الكلمة في نهاية القرن الثامن عشر، ويقصد بها: القصة القصيرة، السيرة الذاتية، الشعر، الرسائل، المذكرات...

ثم ينتقل الناقد إلى تعريف النص الأدبي، حيث يقترح تعريفين اثنين:

-التعريف الأول: يرى في النص الأدبي إحالة على عالم الأشياء والشخصيات والأحداث الخيالية... (يهتم بالنثر)

-التعريف الثاني: ينطلق من الوظيفة الشعرية التي ترتكز أساسا على الوزن والقافية والجناس والطباق... (يهتم بالشعر)

وهنا يخلص في نهاية هذه الدراسة إلى أن محاولة تعريف الأدب سابقة لأوانها، ولا يمكن تعريفه إلا من خلال ربطه بأنواع النصوص الأخرى.

وفي الدراسة الثانية المعنونة ب "تصنيف الأنواع"، تم فيها تصنيف النصوص الأدبية إلى أنواع حسب عناصر أساسية وأخرى ثانوية، فإذا لم يحترم النص العناصر الثانوية فإن انتماءه إلى النوع لا يتضرر، لكن إذا لم يحترم العناصر الأساسية فإنه يخرج من دائرة النوع ويندرج تحت نوع آخر. كما يتم تصنيف الأنواع بنفس الطريقة التي تصنف بها الصور البلاغية، حيث نجد أن النوع يتحدد قبل كل شيء بما ليس واردا في الأنواع الأخرى، مثل المدح والهجاء، النسيب، الخمريات، العتاب، الوعيد، الإنذار، المناظرة...

ويرى الدكتور عبد الفتاح كيليطو أن القدماء كانوا يميزون بين الأنواع النبيلة والأنواع السيئة، فلا يهتمون إلا بالأولى، وهكذا يمكن تصنيف الأنواع إلى نثر ونظم (شعر)؛ فالنثر يتميز بالتشتت والتبعثر، في حين أن النظم متماسك ومترابط.

ثم إن النثر يخضع لقواعد النحو، بينما النظم فيضيف إلى قواعد النحو قواعد الوزن والقافية. وهنا يقترح عبد الفتاح كيليطو تصنيفا مختلفا عن باقي التصنيفات الأخرى، يعتمد على تحليل العلاقة القائمة بين المتكلم والخطاب، حيث يقسمه إلى أربعة أنواع:

-المتكلم يتحدث باسمه.

-المتكلم يروي لغيره.

-المتكلم ينسب لنفسه خطابا لغيره.

-المتكلم ينسب لغيره خطابا لنفسه.

ينتقل الدكتور عبد الفتاح كيليطو إلى الدراسة الثالثة "قواعد السرد"، ويرى فيها أنه قد كانت هناك محاولات عديدة لتحديد قواعد السرد منذ العصر اليوناني مع أفلاطون، مرورا بالحريري وابن الخشاب، ثم ديدرو وفلاديمير بوب وغريماس ورولان بارت ... انتهاء بهنري جيمس.

بدأ عبد الفتاح كيليطو دراسته بتعريف الحكاية التي تنبني على هذه القواعد، حيث يقول إنها مجموعة من الأحداث التي تنتظم على شكل سلاسل تكثر أو تقل حسب طول وقصر الحكاية، يشد أفعالها رباط زمني ومنطقي.

للسرد ثلاث قواعد:

-القاعدة الأولى: ارتباط السابق باللاحق.

-القاعدة الثانية: ارتباط تسلسل الأحداث بنوع الحكاية.

-القاعدة الثالثة: ارتباط تسلسل الأفعال السردية باعتقادات القارئ في مجرى الأمور.

أما الدراسة الرابعة "دراسة الأدب الكلاسيكي: ملاحظات منهجية، يؤكد فيها الناقد عبد الفتاح كيليطو على أن الأدب الكلاسيكي تستعمل فيه مجموعة من المفاهيم الأساسية، من قبيل:

-مفهوم الفرد المبدع: فالباحث العربي في الأدب الكلاسيكي يهتم بالشخصيات المشهورة فقط.

-مفهوم التعبير: حيث يصبح الأدب مرآة عاكسة لشخصية صاحبه.

-مفهوم تلاحم أجزاء النص: في كل نص وحدة خاصة تربط بين أجزائه.

حسب كيليطو كل نص أدبي كلاسيكي تختلف دراسته من باحث لآخر؛ فإذا كان الباحث عربيا فإن المهمة سهلة نوعا ما، أما إذا كان مستشرقا فإن المهمة تصعب نوعا ما. ويتم الاستناد إلى خطاطة التواصل التي اقترحها ياكوبسون:

المخاطِب خطاب المخاطَب

نسق

حيث إن المخاطب يوجه خطابا إلى المخاطب، وهذا الخطار يمر عبر نسق ليكون مفهوما، وإذا غاب النسق تكون عملية التواصل فاشلة، وهو ما يحدث عندما يجهل المخاطب اللغة التي يستعملها المخاطب.

ينهي الناقد قسمه الأول من كتابه "الأدب والغرابة" بدراسة عنونها ب: "تاريخ الشاعر"، فيقول أن الشعر العربي القديم كتب عنه الكثير، لكن القليل ممن كتبوا من اهتم بالشاعر، الذي تختلف عوامل ودوافع نظمه للشعر؛ حيث نجد امرؤ القيس ينشط لقول الشعر إذا ركب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب، والنابغة إذا رهب.

ولهذا يحتل الشاعر الجاهلي مكانة عالية داخل قبيلته، لأنه الناطق الرسمي باسمها فأحيانا يعبر عنها وأحيانا أخرى يعبر عن ذاته. وكان الاعتقاد السائد آنذاك أن لكل شاعر شيطان.

وبعد مجيء الإسلام ظل الشاعر والشعر يحظيان بنفس المكانة العالية التي كان عليها في العصر الجاهلي، والذي تغير فقط هو الانتماء العقائدي للشاعر، فكان منهم الخوارج والمسلمون والكفار...

وفي العصر الأموي بدأ فيه الشعر يخرج عن دائرة الفنون ليختلط بمجال السياسة، مما سيمهد لمكانة الشاعر والشعر بالتراجع، حيث ستنهار قيمة الشعر والشاعر معا في العصر الموالي (العباسي)، وذلك راجع إلى أربعة عوامل أساسية:

-تكوين جيش نظامي معظم عناصره من غير العرب.

-تنظيم الدواوين والكتب، والتركيز على أهمية الكاتب.

-ظهور الدعاة والوعاظ والقصاصين... الذين نافسوا الشاعر.

-تطور العلوم كالتفسير والفقه والحديث والفلسفة... التي أخذت بدورها تزاحم الشعر.

أما القسم الثاني فكان تطبيقيا، ورصده لتناول خمس دراسات، الأولى عنونت ب "بين أرسطو والجرجاني: الغرابة والألفة" ركز فيها على اختلاف المقصد بين البلاغة اليونانية والعربية كما أكد على أن البلاغة ليست شيئا واضحا المعالم فلا يجب أن تدرس بمعزل عن العلوم الأخرى علم النحو، علم المنطق، علم الكلام كما لا يمكن دراسة علم البديع مثل المعاني والبيان. كما وضح كيليطو أن الخطابة العربية ذات لغة شاعرية حيث أن الأسلوب هو مركز الصدارة عند البلاغة العربية كما أنه جزء من بلاغة الخطاب عند اليونان.

بعد أن رصد الكاتب مقارنة بين البلاغة اليونانية والعربية قال بأن البلاغة فيما مضى تنبض بالحياة على أنها اليوم لا تكاد تحرك أي فضول. فهناك فرق بين البلاغة القديمة والحديثة كما هو الشأن عند الغرب فالبلاغة مبحث قديم يهتم بالإقناع أما البلاغة اليوم فهي تداولية، والمعنى الحجاجي الإقناعي يصب في التداولية الحديثة وهذا هو مقصد كيليطو.

كما أقام أيضا العلاقة بين مصطلح الغرابة والألفة حيث أن النص الشعري يتألف من المألوف وغير المألوف.

كما أشار الكاتب أيضا إلى "معنى المجاز" بكونه انتقال من كلام أصلي حقيقي إلى معنى آخر مجازي: عن طريق توظيف المجاز والاستعارة كصورة شعرية سماها فضيلة يؤثر بواسطتها المتكلم على المتلقي حيث يحس بالغرابة والدهشة والتعجب، وأعطى مثالا ب "مجاز الشمس" ليبين استعارة كلمة الشمس في الشعر العربي من حيث المشاهدة، والرؤية البعيدة العالية، ومن حيث الظهور والخفاء.

أما عن مميزات الشمس فقد أكد كيليطو أنها تارة تحضر وتارة تغيب، وتارة ترحل، وتارة تقيم، تشرق عند قوم وتغرب عند آخر...، إلا أن كيليطو أكد على أن للشمس لغة فعندما تختفي فإنها تفقد مكانها في السماء وتعود إلى نقطة انطلاقها.

وقد التفت الكاتب إلى مصطلح "الاحتضار" دلالة على عصر الانحطاط فبعد أن كانت البلاغة شامخة أصبحت منحطة تذوب وتضمحل، وهذا إشارة إلى تاريخ البلاغة وقد استشهد بالشمس في ازدهارها بالانتقال من ظلمة النوم إلى إشراق الصباح، بعد الجرجاني وهنا تأكيد الكاتب على أن علاقة البعد والقرب بالغرابة والألفة التي تتميز بالقرب، وذلك بتقريب البعيد وجعل البعيد قريبا، فكلما كان المعنى بعيدا غريبا كلما كانت الغرابة أمكن في النفوس كبعد الشمس من الأرض فالكلام المستغرب فيه سحر الكلام ويخرج الخفي إلى الجلي وهنا توفيق بين القديم والحديث عند كيليطو.

في الدراسة الثانية "الحريري والكتابة الكلاسيكية يقول كيليطو أنه إذا كانت شخصيات كتب الحديث والأخبار والتاريخ شخصيات فردية، فإن شخصيات مقامات الحريري أنماط إنسانية ونماذج بشرية عامة مثل :أسماء النساء التي ترد في الشعر الجاهلي أو الإسلامي كهند وليلى وسعاد وخولة وسلمى ودعد ولبنى وعفراء حتى أصبحت سنة شعرية من الصعب الخروج عنها.

إن ابا زيد السروجي والحارث بن همام بطلا المقامات الحريرية أنماط بشرية عامة تترجم سلوكيات أخلاقية إنسانية مطلقة .كما في الحديث النبوي الشريف" :كلكم حارث وكلكم همام ."ومما يؤكد نمطية هذه الشخصيات أوصافها التي تتغير من مقامة إلى أخرى حتى تصبح شخصيات براقشية متغيرة تتلون في أخلاقها بتغير الأمكنة والأزمنة والأفعال.

وإذا كانت المعاني والأفكار تتغير بسرعة في العصر الحديث بتغير الموضات والمدارس والتيارات الأدبية والفلسفية، فإن المعاني في الآثار العربية الكلاسيكية مهما كانت مبتذلة ومكررة فإنها ما تزال تحافظ على مصداقيتها ومطلقيتها المعرفية والثقافية، وفي هذا يقول كيليطو" :أما في العصر الكلاسيكي فإن المعنى كان يعتبر مطلقا ويمتاز بالعمومية أي إننا نجده في جميع العصور، وهذا ما يفسر إيجابيته .نجد عند كل شاعر تشبيه الكريم بالبحر والمرأة بغصن البان ..."

أما الدراسة الثالثة "الزمخشري والأدب"، فمن المعروف أن توليد نص أدبي وإبداعي خاضع للظروف الذاتية والموضوعية أو لدواع ميتافيزيقية كشياطين الشعراء الذين يلهمونهم بالشعر أو بناء على طلب ضمني توحي به الكتابة أو مقدمة الكتاب .وقد كتب الزمخشري أدب المقامات تحت وازع حلم رآه في الليل يطلب منه أن يستعد للموت وأن يدع عنه الهزل ويعوضه بالجد .لذلك كتب مجموعة من المقامات التي لا تشبه مقامات الحريري أو الهمذاني إلا في أسلوب السجع واستعمال المحسنات البديعية .وتخضع المقامة حسب الكاتب للثوابت البنيوية التالية:

السند، والسفر، ونمطان إنسانيان متناقضان) الأديب والمكدي(، وحكاية مبنية على مايسميه أرسطو التعرف، وفن كتابي يشير إلى الأسلوب الرفيع سواء أكان مزيجا من الشعر والنثر أم مزيجا من الأنواع الأدبية ومن الجد والهزل أم يغلب عليه السجع والمحسنات.

وإذا كانت مقامات الحريري والهمذاني يغلب عليها الهزل واللهو بسبب الكدية والاستجداء الدنيوي، فإن مقامات الجرجاني هي مقامات دينية وعظية وإرشادية قائمة على الترغيب والترهيب ويغلب عليها الجد لارتباطها بماهو أخروي .كما يطغى عليها النقد الذاتي والعتاب النفسي وتأنيب الضمير .وهو في مقاماته لا يوجه خطابه إلا لذاته لتقريعها وتوبيخها ولومها وإسداء النصائح لها من

خلال صيغ الأمر والنهي والتحضيض والاستفهام والإطناب بالترادف والطباق .كما أن لغة المقامات تجمع بين معجمين :معجم الضلال ومعجم الهداية .فالدنيا امرأة فاتنة كثيرة الإغراء والافتتان، ولترويضها لابد من سلوك طريق الجد والاستعداد للموت .كما يتناول الزمخشري الأدب من وجهة نظر غريبة، أي إنه يعرض أغراض الأدب وأدواته) النحو والعروض والقافية (من خلال نظرة واعظ متزهد .ويوجه الزمخشري كتابه لقارئ ضمني وسيط مدرس للأدب يقوم بتبليغ المقامات لأصحاب الفضل والديانة، أي إنه لن يمكن منها العامة وقليلي الدين .ولابد لهذا الكتاب من مؤلف يعطيه المشروعية ومصداقية التلقي والانتشار لأن النص المكتوب أرستقراطي، بينما النص الشفوي بلا اسم المؤلف يصبح ديمقراطيا في انتشاره.

وبخصوص دراسته الرابعة "الملح والنحو" فقد كتب الحريري أرجوزة في النحو تشكل ملحمة الإعراب، وكانت الأراجيز وسيلة لنظم العلوم والمعارف من أجل تسهيل الفهم والاستيعاب على الطلبة عن طريق الحفظ والاستظهار .يلاحظ على ملحة الحريري أنها نظم وليس بشعر لانعدام الطرب والمتعة الشعرية والألفاظ الشاعرية .كما تتسم هذه الملحة بالحشو والكلام الزائد الذي تستوجبه القافية . وتخضع الملحة النحوية لهرمية في الإسناد: العرب العرباء والرواة والمتكلم والمخاطب .وتقترب الملحة النحوية من الوعظ لهيمنة الوظيفة التعليمية التلقينية وصيغ الأمر والنهي والإرشاد .وتطفح الملحة بآراء النحاة في المسائل الخلافية دون أن يشير إليهم، وكان من الأفضل ألا يذكر إلا المسائل النحوية التي اتفق حولها النحاة ..كما يستعمل الحريري لغة السلطة والسيطرة في توجيهه الخطاب إلى المتلقي طالبا منه التنبيه والإنصات دون اعتراض قصد الاستفادة من النحو، وعلى السامع كذلك أن يصحح أخطاء شيخه إن وجدت وأن يكمل مانقص وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تواضعه وتواضع العلماء الكبار أمثال الحريري .أما أمثلة الملحة فهي غنية بالفوائد الدينية والأخلاقية والمعرفية والأدبية.

وفي الدراسة الأخيرة "نحن والسندباد" ينطلق الكاتب من شعرية گاستون باشلار التي ترتكز على المبادئ الكونية الأربعة :الماء والنار والهواء والتراب في تحليل أسفار سندباد الواردة في كتاب ألف ليلة وليلة .إن الكاتب يقابل بين شخصين :السندباد البري رمز الفقر والمعاناة والشقاء الأرضي، والسندباد البحري رمز الغنى والسعادة، ورمز الانفتاح والتحدي والمغامرة الخارقة .كما أن الكاتب يقابل بين عالمين :عالم البحر وعالم البر، أو بين فضاءين متعارضين :فضاء الانغلاق وشدة الحر والتعب والمشاكل البشرية وفضاء الانفتاح والأهوال والكنوز والمغامرات العجيبة .وتقابل القصة أيضا بين عالم الألفة وهو عالم البر أو عالم الأرض الذي يرتبط به السندباد الأرضي وعالم الغرابة وهو عالم فانطاستيكي عجائبي يتميز بمواصفات غريبة تتعلق بحجم المخلوقات، وجمع فضائه الغريب بين متناقضات ومتنافرات تتجاوز الطبائع البشرية، ووجود شعائر وعادات لم تكن تدور بخلد السندباد كأكل اللحوم البشرية وتحول الناس إلى كائنات حيوانية ووحوش خارقة ممسخة .وكل هذا يعبر عن ثنائية الإيهام والإبهام كما أن السفر السندبادي لا يكتفي بما هو أفقي) السفر برا وبحرا(، بل يتعداه إلى ما هو عمودي) السفر في الجو وعمق الأرض .(ولا تنتهي الأسفار السندبادية إلا بالتوبة والعودة إلى البر وإلى حاضرة بغداد وتوقف السرد الشهرزادي .وتنبني القصة كذلك على المقايضة السردية لأن السرد وليد توتر بين قوي وضعيف، شهرزاد راوية في موقف الضعف وشهرزاد مستمع في حالة القوة والسيطرة والبطش، والسندباد البحري السارد في حالة قوة والسندباد البري المستمع في حالة ضعف وسكون .ويكون الاستماع هنا بمائة مثقال ذهبا وعشاء فاخر للسندباد البري، وفي العقد الضمني بين شهرزاد وشهريار يكون السرد في مقايضة مع الرحمة والعطف.

هذا، وإن حكايات السندباد ما هي إلا حوار بين الانغلاق والانفتاح وإثبات لجدلية الداخل والخارج وحوار الأنا مع الآخر أو الغير .ولقد امتدت الرحلات السندبادية إلى عصرنا الحاضر واستمرت ثنائية الألفة والغرابة كما في الساق على الساق لأحمد فارس الشدياق وحديث عيسى بن هشام للمويلحي.

القضايا المنهجية والفنية:

يتبنى عبد الفتاح كيليطو في كتابه الأدب والغرابة البنيوية السردية القائمة على التفكيك والتركيب والتحليل المحايث وتحليل الخطاب . وسياق هذا الكتاب هو فضاء العالم العربي إبان فترة السبعينيات التي ظهرت فيها البنيوية عن طريق الترجمة والمثاقفة والاحتكاك بالآداب الغربية ومناهجها النقدية .وكان من الطبيعي أن يتأثر النقاد العرب بالمناهج النقدية الغربية الحديثة ويحاولون تطبيقها على الآداب العربية سواء القديمة منها أو الحديثة .وإذا كان كمال أبو ديب قد اهتم ببنية الشعر العربي القديم والجديد، فإن عبد الفتاح كليطو اهتم بالثقافة العربية الكلاسيكية وخاصة بنية السرد والحكاية في شتى تقاطعاتها وأجناسها.

ومن المعلوم أن البنيوية تربت في أحضان اللسانيات مع فرديناند دوسوسير والبنيوية الوظيفية) أندري مارتينيه(، والگلوسيماتيكية) هلمسيلف(، وحلقة براگ) جاكبسون، تروبتسكوي(، والتوزيعية) هاريس وبلومفيلد(، والتوليدية التحويلية) نوام شومسكي(، كما تربت في أحضان الشكلانية الروسية والنقد الفرنسي الجديد .ويعد كلود ليڤي شتروس ورومان جاكبسون من البنيويين الأوائل الذين طبقوا المنهج البنيوي اللساني على الشعر ولاسيما قصيدة القطط Les chats للشاعر الفرنسي بودلير في منتصف الخمسينيات لتعقبها تحليلات بنيوية حول السرد والقصص المصورة والحكايات الشعبية والبوليسية مع رولان بارت وكلود بريمون وتودوروف وجيرار جنيت .وستتحول البنيوية بعد ذلك إلى مقاربة سيميائية مع گريماس وجوليا كريستيڤا وفليب هامون وجماعة أنتروڤيرن ومدرسة باريس وأتباع بيرس .وقد استلهمت البنيوية الفرنسية الإرث الشكلاني وجماعة تارتو السيميائية بموسكو عن طريق الترجمة والاطلاع الثقافي والتبادل المعرفي.

ولقد استفاد الدارسون العرب من المنهج البنيوي في أواخر الستينيات وعقد السبعينيات من خلال الاطلاع على كتب تعريفية ككتاب محمد الحناش" البنيوية اللسانية" ، وكتاب فؤاد أبو منصور"النقد البنيوي الحديث"، وكتاب فؤاد زكريا" الجذور الفلسفية للبنائية"، وكتاب صلاح فضل" نظرية البنائية في النقد الأدبي..."

هذا، وقد غدا النقاد العرب يطبقون المنهج البنيوي على الأدب العربي انطلاقا من مرجعيات نقدية غربية متنوعة كما فعل موريس أبو ناضر وخالدة سعيد ويمنى العيد وكمال أبوديب وصلاح فضل وعبد الكبير الخطيبي وجمال الدين بن الشيخ وجميل شاكر وسمير المرزوقي وعبد السلام المسدي وحسين الواد وسيزا قاسم...

وإذا كان أغلب الدارسين يتعاملون مع المنهج البنيوي بطريقة حرفية آلية قائمة على الإسقاط الخارجي حتى يصبح العمل النقدي تمرينا منهجيا آليا يسمو فيه المنهج على حساب النص، إلا أن عبد الفتاح كيليطو يتعامل مع المنهج البنيوي بذكاء خارق حيث يخضع المنهج للنص ويستنبط من داخله دلالات عميقة لايمكن أن يتصورها القارئ الضمني والفعلي على حد سواء.

ويرتبط المنهج البنيوي لدى كيليطو بالوصف والتفسير والتأويل من خلال استقراء اللغة في سياقاتها النصية مع تنويع المنظورات والتصورات في التحليل والمقاربة حيث يعتمد في إحالاته البيبليوغرافية على الشكلانية الروسية والبنيوية الفرنسية والسيميائيات والفلسفة الغربية وجمالية التلقي) ياوس .(ولكن هذه المرجعيات يتحكم فيها الكاتب بنوع من المرونة والتلميح الموجز والتصرف المنهجي.

ويبدو من خلال قراءتنا للكتاب أن كيليطو يوجز في الكتابة اختصارا وتكثيفا؛ لأن الكلام كما هو معروف ما قل ودل .وعلى الرغم من هذا الإيجاز غير المخل الذي يظهر واضحا في صغر حجم الكتاب إلا انه كتاب دسم مليء بالمعارف المنهجية والمعلومات المتعلقة بالآداب الغربية والعربية.

وعليه، فإننا نشيد بالكاتب تنويها وتقديرا كبيرا، ونحييه تحية إجلال وإكبار لأنه خدم الثقافة المغربية ونقدها الأدبي، و أعاد الاعتبار للثقافة العربية الكلاسيكية، وفتح باب التراث العربي الجمالي والفني للدارسين العرب لقراءته من جديد على ضوء مناهج تأويلية جديدة تستقرى الداخل النصي تأويلا وتفسيرا وتفكيكا .وهذا ما قام به أتباعه وتلامذته كالباحث السعودي عبد الله الغذامي والمغاربة محمد مفتاح وسعيد يقطين ومحمد مشبال في كتابه" بلاغة النادرة"، والباحثة المصرية نبيلة إبراهيم، والعراقي عبد الله إبراهيم، أي البحث الجاد في أدبية السرد العربي القديم والثقافة العربية الكلاسيكية وتفكيك جميع أجناسها من أجل تركيب تاريخ للأدب العربي بمفهوم علمي دقيق .ويلاحظ أيضا أن بعض نصوص كليطو مختصرة وموجزة تتطلبها المقاربة البنيوية التي تكتفي بالنصوص القصيرة وهذا هو شأن التحليلات البنيوية والسيميائية الغربية) جماعة أنتروفيرن مثلا.(

وقد يبدو أن منهجية الكتاب متجاوزة وأن المعارف التي يحملها أصبحت بديهية، إلا أن الكتاب مازال معاصرا يعيش معنا ويتجدد كل يوم في الزمان والمكان باختلاف القراء، وينبغي لكل دارس ومبتدئ في الآداب أن يعود إليه من أجل استيضاح الأمور والمفاهيم الاصطلاحية الأدبية والنقدية قبل الشروع في أي بحث أو عمل دراسي ونقدي سواء أكان بحثا شخصيا أم أكاديميا.

وتمتاز مقاربة كيليطو النقدية بلغة وصفية رائعة تعتمد على المساواة بين اللفظ والمعنى والمتعة اللفظية وشاعرية التحليل وتنوع السجلات المعجمية والنقدية بتنوع المرجعيات التناصية، كأننا أمام عمل إبداعي محكم يحقق للقارئ الضمني والفعلي متعة ولذة نادرة كلذة النص التي تحدث عنها الفرنسي رولان بارت.

وفي الأخير، إن كتاب" الأدب والغرابة "نموذج نقدي رائد في عالمنا العربي في دراسة الثقافة العربية الكلاسيكية؛ لأنه يستند إلى آليات التفكيك والتركيب والتأويل وتفسير النصوص من الداخل واستكناه المضمر من خلال المصرح بأسلوب وصفي ممتع رائع حيث يصبح المنهج في خدمة النص وليس العكس.

خاتمة:

إن حيوية النقد تتجلى في أعمال لديها بالمسؤولية الكبرى للناقد تجاه تراثه وإعادة قراءته بطريقة تحرره وتكشف فيه عن المعنى الذي يبنى ولا يعطى، فكيليطو أدهش العرب والغرب في آن واحد بإنتاجاته الفكرية، وقام بإعادة الاعتبار إلى التراث العربي القديم، بتحليله والكشف عنه على ضوء مناهج تأويلية جديدة تستقرأ دواخل النص تأويلا وتفسيرا وتفكيكا.

إن عمل كيليطو له ظاهر وباطن؛ ظاهره المتعة وباطنه مرجعيات قرائية مختارة بعناية فائقة، تجتمع فيها نصوص لكبار المبدعين والمفكرين والكتاب، إن أعمال كيليطو انصبت على قراءة التراث من أجل إعادة النظر إليه من زاوية مغايرة للمألوف، ولم يتأتى له ذلك إلا بتحديد الأسئلة التي توقظ من كان ينعم في سبات عميق، ومن كان يركن في الظلمات وتجذبه إلى النور.

في كتابه الأدب والغرابة لم يبحث كيليطو عن موضوع الغرابة فقط بل سعى إلى إنتاجها، فكان وهو ينتجها يحصن نفسه من أن يصبح مألوفا، وقد نجح في مؤلفاته اللاحقة في ترسيخ بصمته الخاصة، وبهذا ترسخ لدى القراء أن لدى كيليطو أسرارا تؤمن هذه الغرابة باستمرار.

سر الغرابة لدى كيليطو مبنية بالأساس على الإدهاش. ومصطلح الغرابة أو التعجبية في النقد المنهجي مصطلح ذو نشأة غربية، إذ نشأ على يد تودوروف في كتابه المشهور الفنتاستيكية، استفاد منها عبد الفتاح كيليطو في شرحه لبعض الأجناس الأدبية، والتي تحتوي على عنصر أو أكثر من عناصر البلاغة.

وقد يبدو أن منهجية الكتاب متجاوزة وأن المعارف التي يحملها أصبحت بديهية، إلا أن الكتاب مازال معاصرا يعيش معنا باختلاف القراءات.

الهوامش:

[1] – التحليل النفسي والأدب في النظرية والممارسة، عبد الجليل بن محمد الأزدي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2004، الطبعة الأولى، 2005، من الصفحة 141 إلى الصفحة 148 بتصرف.